الشعر ديوان العرب

حياة العرب في الشعر

كتب صلاح عبد الصبور كتاباً أسماه " حياتي في الشعر " بين أنه عبَّر في شعره عن مراحل حياته وأفكاره ، والعرب كانوا يفعلون هذا في أشعارهم بل أكثر من هذا فالشعر ديوان العرب سجلوا فيه كل ما يتعلق بحياتهم فهو " ديوان بيانهم وجامع إحسانهم ومقيِّد ذكر أيامهم وأنسابهم وحافظ أُصولهم وأحسابهم، يعطرون بأرجه مجالس أنسهم ويعرفون به مزيّة يومهم على أمسهم ، ولهذا قال الطائي:

ولولا خِلالٌ سنَّها الشعْرُ ما درى بغاةُ الندى من أين تُؤتى المكارمُ

مَن رفعه الشعر ارتفع، ومن وضعه الشعر اتَّضع، يُبنى بالبيت من الشعر شرف الوضيع

ويُهدم بالبيت الهجاء مجد الرفيع. " (١)

وعن الشعر يقول أبو هلال العسكري " فالشعر ديوان العرب، وخزانة حكمتها، ومستنبط آدابها، ومستودع علومها، " (٢)

أهم أغراض الشعر الجاهلي

أما أهم أغراض الشعر الجاهلي فهي : المدح ، والهجاء ، والفخر ، والرثاء ، والحماسة ، والغزل ، والوصف .

---

(١) بهاء الدين الإربلي " التذكرة الفخرية " ج٢ / ٦٦٩ ، ٦٧٠)

(٢) أبو الهلال العسكري " الصناعتين " ص ٢٦٦

فكان الشاعر لا يمدح إلا من يرجو إحسانه ، وإن شد في سبيل ذلك الرحال .

يقول الأعشى :

وقد طفتُ للمال آفاقه عُمان فَحمِص فأورِيشلم
أتيتُ النجاشي في أرضه وأرض النبيط وأرض العجم

ويقول أيضاً في مدحه لهوذة بن علي سيد بني حنيفة

إلى هوذة الوهَّاب أهديت مديحي أُرَجَّى نوالا فاضلا من عطائكا
سمعتُ بِرَحب الباع والجود والندى فأدليتُ دلوي فاستقتْ برِشائكا

والمدح يكون دائماً بصفات محددة وهي الشجاعة ، والكرم ، شرف النسب ، وقوة القبيلة

عَمرُو بنُ مَرثَدٍ الكَريمُ فَعالُهُ وَبَنوهُ كانَ هُوَ النَجيبُ فَأَنجَبا
غَلَبَت سَماحَتُهُم وَكَثرَةُ مالِهِم لَزَباتِ دَهرِ السَوءِ حَتّى تَذهَبا

يقول النابغة الذبياني في مدح عمرو بن الحارث الشيباني

عَلَيَّ لِعَمروٍ نِعمَةٌ بَعدَ نِعمَةٍ لِوالِدِهِ لَيسَت بِذاتِ عَقارِبِ
وَثِقتُ لَهُ بِالنَصرِ إِذ قيلَ قَد غَزَت كَتائِبُ مِن غَسّانَ غَيرُ أَشائِبِ
جَـــوانِحَ قَــد أَيقَنَّ أَنَّ قَبيلَهُ إِذا ما اِلتَقى الجَمعانِ أَوَّلُ غالِبِ

أما الهجاء فهو من نصيب أعداء الشاعر ، وأعداء قبيلته ، أو من يبخل عليه بالعطاء ، والهجاء يكون بالبخل وخسة الأصل والجبن وضعف القبيلة وهي كما تلاحظ نقض صفات المدح .

كقول طرفة بن العبد

بَطيءٍ عَنِ الجُلّى سَريعٍ إِلى الخَنى ذَلولٍ بِأَجماعِ الرِجالِ مُلَهَّدِ

وقول الأعشى

تبيتون في المشتى مِلاء بطونكم وجاراتكم غَرثَى يَبِتْن خَمائصا

والفخر من أهم أغراض الشر الجاهلي ، وهو نوعان فخر قبلي يفخر فيه الشاعر بقبيلته وبأمجادها وأيامها وشرف نسبها كمعلقة عمرو بن كلثوم الشهيرة

وَأَيّامٍ لَنا غُرٍّ طِوالٍ عَصَينا المَلكَ فيها أَن نَدينا
مَتى نَنقُل إِلى قَومٍ رَحانا يَكونوا في اللِقاءِ لَها طَحينا
كَأَنَّ جَماجِمَ الأَبطالِ فيها وُسوقٌ بِالأَماعِزِ يَرتَمينا
ورثنا المجد قد علمت معد نطاعن دونه حتى يبينا

وفخر ذاتي شخصي كفخر عنترة بنفسه

أَنا العَبدُ الَّذي خُبِّرتَ عَنهُ يُلاقي في الكَريهَةِ أَلفَ حُرِّ
خُلِقتُ مِنَ الحَديدِ أَشَدَّ قَلباً فَكَيفَ أَخافُ مِن بيضٍ وَسُمرِ

وقول بشر الفزاري

فَقُلتُ أَبَت نَفسٌ عَلَيَّ كَريمَةٌ وَطارِقُ لَيلٍ غَيرَ ذاكَ يَقولُ
أَلَم تَعلَمي يا عَمرَكِ اللَهَ أَنَّني كَريمٌ عَلى حينِ الكِرامُ قَليلُ
وَإِنِّيَ لا أُخزى إِذا قيلَ مُملِقٌ سَخِيٌّ وَأُخزى أَن يُقالَ بَخيلُ

وقول حاتم الطائي

أُشاوِرُ نَفسَ الجودِ حَتّى تُطيعَني وَأَترُكُ نَفسَ البُخلِ لا أَستَشيرُها
وَلَيسَ عَلى ناري حِجابٌ يَكُنُّها لِمُستَوبِصٍ لَيلاً وَلَكِن أُنيرُها

والغزل من أهم أغراض الشعر الجاهلي وكانوا يستهلون به قصائدهم يقول النابغة متغزلاً :

غَرّاءُ أَكمَلُ مَن يَمشي عَلى قَدَمٍ حُسناً وَأَملَحُ مَن حاوَرتَهُ الكَلِما

ويقول زهير بن أبي سلمى :

دارٌ لِسَلمى إِذ هُمُ لَكَ جيرَةٌ وَإِخالُ أَن قَد أَخلَفَتني مَوعِدي

إِذ تَستَبيكَ بِجيدِ آدَمَ عاقِدٍ يَقرو طُلوحَ الأَنعَمينِ فَنَهمَدِ

ويقول عبد الله بن العجلان النهدي

قَد طَالَ شَوقِي وَعَادَني طَرَبِي مِن ذِكرِ خَودٍ كَريمَةِ الحَسَبِ

غَرّاءُ مِثلُ الهِلاَلِ صُورَتُها أَو مِثل تمثالِ صُورَةِ الرُّهُبِ

نظرة سريعة على الشعر الجاهلي

ولو ألقينا نظرة سريعة على الشعر الجاهلي نجد أن " تقلب إيقاع الزمن ، ما بين الجدب والخصب ، وما بين حل الحبيبة وترحالها ، وما بين رحلتي الشتاء والصيف ، يجعل حياة الجاهلي متأججة دائما بين قطبي التعارض . وفخاخ العدم تحيط به من كل جانب ، ولذلك فإن نشوة التمرد بالحب والخمرة والفروسية ، وصوفية الخضوع تلتقيان في روحية الشاعر الجاهلي لتتكاملا وتعبِّرا عن طرفي التجربة اليومية .

ومن هذه النقطة يمكننا أن نفهم هذا التطرف الذي طبع الموضوعات التقليدية في الشعر الجاهلي : الكرم إلى أقصاه ، والشجاعة إلى أعنف صور البطولات ، والصبر على الشدائد ، والحب إلى درجات الوله والضياع ، وبقية المعاني المحركة لوجدان الإنسان الجاهلي ، من تضحية وثأر وأمانة ...وغيرها " (١)

(١) " موسوعة الشعر العربي " مرجع سابق ص ١٦

المبالغة في البلاغة العربية

والعربي –كما سبق أن قلنا – عصبي المزاج ، سريع الغضب ، متوقد الحماسة ، ومن كان هذا طبعة فإن تصرفاته يعوزها التروي والهوادة والتعقل ، ويميل دائماً إلى صيغ المبالغة لأنه لا يعرف درجات الوسط لذا فإن الشاعر العربي دائماً ما يستنفر " جميع صيغ المبالغة في أفخم موسيقى خطابية ، ليوحي باليقين المعاكس ، فهو يستنجد بإرادة البطل ضدَّ الدهر بشجاعة شبه مستحيلة ضد خطر النقص والضعف والذل ، الخطر الممكن ، والمتحقق كل لحظة .

المبالغة في بلاغة القصيدة العربية لم تأت نتيجة ابتكار البلاغة النظرية ولكنها بلاغة الحدية ، في الحكم الواقع وعظمه فلقد كان العدم اليومي ، وهو النقيض المقابل لحيوية الإنسان الصحراوي المترحل السائح بين المفازات وكان هذا العدم يولد الشعور برخوة الإنسان وكان على هذا الإنسان أن يلجأ إلى دفاع الخيال والفعل معا . ومن الفعل تولدت كل الفروسية الجاهلية ومن الخيال تولد الشعر ، وكانت الحماسة، عاطفية تارة ووجودية شمولية تارة أخرى ، هي المحرك الكياني لجوهر الحيوية العربية كلها " [١]

فالعربي يجنح للمبالغة والخيال والعبارات الخطابية القوية ليتقوى بها على ضعفه وذله ، وليقنع الآخرين بأنه هو الأقوى والأشجع إن لم يكن واقعا فقولا أو خيالا ، خطابة أو شعراً ، ودونك هذه الأمثلة الدالة على ذلك .

---

(١) " موسوعة الشعر العربي " مرجع سابق ص ١٧

يقول عمرو بن كلثوم

مَلَأنا البَرَّ حَـتّى ضاقَ عَنّا وَنَحنُ البَحرُ نَملأُهُ سَفينا
إَذا بَلَغَ الفِطـــــامَ لَنا وَليدٌ تَخِرُّ لَهُ الجَبابِرُ ساجِدينا
لَنا الدُنيا وَمَن أَضحى عَلَيها وَنَبطِشُ حينَ نَبطِشُ قادِرينا

أما الحضر من العرب فعددهم قليل قياسا بالبدو ، وأرق منهم طبعاً ، وأقل غارة ، يعملون إلى جانب الرعي بالتجارة وقليل منهم من يعمل بالزراعة .

سمات الطبيعة العربية

مما سبق يمكن أن نخلص إلى أن طبيعة العربي تتسم عامة بـ :

أ- السمات الإيجابية :

١- الشجاعة في الحق والباطل .
٢- البعد عن الترف وتحمل شظف العيش وقسوة الطبيعة .
٣- نصرة العشيرة ظالمة أو مظلومة .
٤- إكرام الضيف قريباً أو غريباً .
٥- الفصاحة والبلاغة لنصرة الحق أو الباطل .
٦- المروءة والشهامة وإغاثة اللهفان .

ب- السمات السلبية في شخصية العربي :

١- احتقار الحضارة التي أساسها العمل البناء : زراعة وصناعة وعمران ، وكلها تحتاج إلى استقرار وتعاون ونظام وقانون عام وكل هذه العوامل كانت حياة العرب تفتقر إليها جميعاً لذا لم يكن لهم حضارة عريقة كالتي قامت في مصر والعراق والفرس والروم والصين .

٢- العيش على ما تجود عليه الطبيعة به فإن أقفرت لجأ إلى السلب والنهب والحرب .

٣- نفوره من النظام والقانون العام والوحدة وميل إلى الفردية والفوضى والفرقة .

٤- الإيمان بدين الآباء والأجداد وإن كانت عبادة الأصنام والأوثان التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عنهم شيئاً .

٥- عبادة العادات والتقاليد التي ورثوها عن الآباء والأجداد وإن كانت فيها هلاكهم .

٦- عصبيون ، يقدمون الانفعال على الحكمة ، والطيش على العقل.

سمات العرب من أشعارهم

ولقد تبدَّت خصال العرب جليَّة في أشعارهم إذ كان الشعر ديوانَ العرب خاصة والمنظومَ من كلامها، والمقيِّدَ لأيامها، والشاهد على أحكامها. حتى لقد بلغ من كَلَف العرب به وتَفضيلها له أن عمدت إلى سبع قصائد تَخيَّرتها من الشعر القديم، فكتبتها بماء الذهب في القبَاطيّ المُدرجة، وعَلَّقتها بين أستار الكعبة. (١)

ومما يؤكد انعدام فكرة المواطنة عند العرب ، فالناس إما سادة أو عبيد قول الحارث بن عباد :

قَد مَلَكناكُمُ فَكونوا عَبيداً ما لَكُم عَن مِلاكِنا مِن مَجالِ

وهم يعدون الخضوع لسلطان ملك خزي وعار لذا فهم دائماً ما يؤكدون في أشعارهم عدم خضوعهم لسلطان الملوك ، وأنهم كثيرو المنازلة لهم والتغلب عليهم.

(١) ابن عبد ربه الأندلسي " العقد الفريد " ج ٢ ص ٣٠٦

عمرو بن كلثوم

وَأَيّامٍ لَنا غُرٍّ طِـــوالٍ عَصَينا المَلكَ فيها أَن نَدينا
وَسـيِّدِ مَعشَـــرٍ قَد تَوَّجوهُ بِتاجِ المُلكِ يَحمي المُحجَرينا
تَرَكنا الخــيَلَ عاكِفَةً عَلَيهِ مُقَلَّدَةً أَعِنَّتَها صـــــفونا
إِذا ما المَلكُ سامَ الناسَ خَسفاً أَبَينا أَن نُقِرَّ الـذُلَّ فــينا
نُسَـــمّى ظـالِمينَ وَما ظُلِمنا وَلكِـنا سَـــنَبدَأُ ظـالِمينا

ويقول المهلهل بن ربيعة :

لَم نَرَ الناسَ مِثلَنا يَومَ سِرنا نَسلُبُ المُلكَ غُدوَةً وَرَواحا

ويقول امرؤ القيس :

فَما مِلكُ العِراقِ عَلى المُعَلّى بِمُقتَدِرٍ وَلا مُلكُ الشَآمِ
أَصَدَّ نِشاصِ ذي القَرنَينِ حَتّى تَوَلّى عارِضُ المَلِكِ الهُمامِ

ويقول عنترة

وَسائِلي السَيفَ عَنّي هَل ضَرَبتُ بِهِ يَومَ الكَريهَةِ إِلا هامَةَ المَلِكِ

إن مجد العربي الذي يفاخر به ، والذي يظل العمر كله يدافع عنه ، ويورِّثه لأبنائه من بعده هو السيادة والحريَّة التي تتنافى مع الإذعان لأي حاكم وإن كان من بني جنسه ، والخضوع لأي قانون وإن كان فيه مصلحته .

إن روح الفرديَّة ، والأنا المتضخِّمة ، والكبرياء الزائفة ، وغمط أصحاب المواهب هي التي جعلت العربي يرفض أن يعيش في مجتمع الحكم فيه لغيره وإن كان أهلٌ له ويعتبره عبوديَّة ومذَّلة ، ويفضل شق عصا الطاعة والعزلة ويعتبر ذلك سيادة وعزة !!

يقول زهير بن جناب الكلبي

أَبَنِيَّ إِن أَهلِك فَإِنّ ي قَد بَنَيتُ لَكُم بَنِيَّه
وَجَعَلتُكُم أَبناءَ سا داتِ زِنادُكُم وَرِيَّه

فالسيادة لدي العربي تعني التمرُّد على القوانين العامة ، والتمرُّد على نظام الدولة ، وعدم الخضوع للأحكام الملوك . مما أدى إلى تفكك المجتمعات العربية ، وضعفها ، وتخلفها ، وعدم قيام أي حضارة على أرضها ، لأن الوحدة والتعاون والنظام هي عماد أي حضارة والعربي يفتقر إليها جميعا .

إن أكبر آفة ابتلي بها العرب قديماً وحديثا آفة الفرقة والصراع على الحكم ، والخروج على الحكام ، وغلبة روح الفردية ، والخروج على النظام العام ، وتغليب المصلحة الشخصية على المصلحة العامة .

وبرغم أن هذه الصورة التي عرضناها هي صورة البدو القديمة إلا أن البدو ما زالوا يحافظون عليها حتى اليوم رغم معطيات الحياة المدنية الحديثة وبعض مظاهر الرفاهية والترف التي تقدمها حكومات السلطة المركزية إلا أن البدوي لا زال يحافظ على نمط حياة أجداده الأوائل !!

***